

الباب الخامس والعشرون

رومة واليهودية

١٣٢ ق . م - ١٣٥ م

الفصل الاول

پارثيا

بين بحر پنتس وجبال القوقاز تقوم جبال أرمينية ذات القلل الشمطاء التي رست عليها سفينة نوح ، كما تقول قصة الطوفان . وفي أوديتها الخفية كانت تمتد الطرق التي تصل پارثيا وأرض الجزيرة بالبحر الأسود ، ومن أجل هذا كانت الإمبراطوريات تتنافس على امتلاك أرمينية . وكان سكانها من الجنس الهندوربي يمتون بصلة القرى للحثيين والفريجييين ، ولكنهم ظلوا محتفظين بأنفسهم الأناضولى . وكانوا فى الأيام الماضية شعباً قوياً صبوراً على أعمال الزراعة ، يحدق الصناعات اليدوية ، ولا يجاربه شعب آخر فى براعته التجارية ؛ استغلوا أرضهم الضئيلة أحسن استغلال ، وأنتجوا من الثروة ما يكفى لأن يعيش ملوكهم معيشة الترف ، وإن لم يكسبهم الكثير من القوة والسلطان . وقد ذكر دارا الأول فى نقش بهستوم (٥٢١ ق . م) اسم أرمينية بين الولايات التابعة لبلاد الفرس ، وكانت فيما بعد تابعة تبعية اسمية لدولة السلوقيين ثم تداولتها أيدي پارثيا ورومة مراراً عدة ، ولكنها استطاعت لبعدها أن تحتفظ باستقلالها الفعلى . وكان أشهر ملوكها ترجرانس Tirgranes الأكبر (٩٤ - ٥٦ ق . م) الذى فتح كپدوكيا وأضاف إلى أرتكساتا Artaxata عاصمة ثانية هى ترجانوسترا Triganocetra .

هو انضم إلى مترداتس في ثورته على رومة ؛ ولما أن قبل بمجي عذره ، أهدي إلى القائد المنتصر ٦٠٠٠ وزنة (٢١٦٠٠٠٠٠٠ ربال أمريكي) ، و١٠٠٠٠٠ درخة (٦٠٠٠٠ ربال أمريكي) لكل قائد مائة ، وخمسين درخة لكل جندي في الجيش الروماني . واعتزقت أرمنية بسيادة رومة في عهد قيصر وأغسطس ونبرون وأصبحت في فترة من الزمان في عهد تراچان ولاية رومانية . لكن ثقافتها كانت رغم هذا ثقافة إيرانية ، وكانت ميولها في العادة نحو پارثيا .

وكان البارثيون قد ظلوا عدة قرون يحتلون الإقليم الواقع جنوب بحر الخزر بوصفهم رعايا الملوك الأكيمينيين ثم الملوك السلوقيين . وكان هؤلاء البارثيون من العنصر السكودى - التوراني أى أنهم من جنس الشعوب الضاربة في الجنوب الشرقى من روسيا وفي بلاد التركستان . وفي عام ٢٤٨ ق . م خرج زعيم سكودى يدعى أرساسيس على حكم السلوقيين ، وجعل پارثيا دولة مستقلة ذات سيادة ، وأنشأ فيها أسرة أرساسية مالكة . ولما ضعف الملوك السلوقيون على أثر هزيمة رومة لأنتيخوس الثالث (١٨٩ ق . م) عجزوا عن حماية بلادهم من البارثيين الهمج المتهورين ، فلم يكدهم ينجتم القرن الثاني قبل الميلاد حتى كانت أرض الجزيرة وفارس بأكملها قد ضمت إلى الإمبراطورية البارثية الجديدة . وكان للملوك البارثيين الجدد ثلاث عواصم يقيمون فيها في فصول السنة المختلفة : هكتومبيلس Hecatompylus في بارثيا ، وإكبتانا (محل همدان) في ميديا ، وطشقونة Ctesiphon على المجرى الأدنى لنهر دجلة . وعلى الضفة الأخرى للنهر المقابلة لطشقونة كانت تقوم العاصمة السلوقية القديمة وهي مدينة سلوقيا التي ظلت عدة قرون مدينة يونانية في مملكة بارثية . وقد احتفظ الحكام الأرساسيون بالنظام الإدارى الذى أقامه السلوقيون ، لكنهم غشوه بنظام إقطاعى أخذوه عن الملوك الأكيمينيين . وكانت جمهرة الشعب تتألف من أقبان الأرض والرقيق ؛ وكانت الصناعة متأخرة وإن كان صاهرو الحديد البارثيون قد استطاعوا أن ينجرجوا منه نوعاً جيداً ،

وكانت « صناعة عصر الخمر تدر أرباحاً طائلة » (٢) : وكان جزء من ثروة البلاد يأتي عن التجارة التي تنقل في الأنهار الكبرى ، وينقل بعضها في طرق القوافل التي تمتاز بارثيا في طريقها بين أقصى آسية وبلاد الغرب . واشتبهت رومة مع بارثيا في حرب من سنة ٥٣ ق . م حين هزم البارثيون كراسس Crassus في كاري Carrhae إلى سنة ٢١٧ م حين ابتاع مكربنس Macrinus الصلح من أرتبانس Artabanus ، بغية السيطرة على هذه الطرق ، وعلى البحر الأحمر .

وكان البارثيون أغنى أو أفقر من أن يهتموا بالأدب ؛ فقد كان الأشراف ، يفضلون فن الحياة على حياة الفن كشأنهم في كل العصور ؛ وكان أقتان الأرض أميين لا يعرفون للأدب معنى ، وكان الصناع منهمكين في عملهم لا يجدون متسعاً من الوقت للاهتمام بالأدب ، وكان التجار مشغولين بتجاراتهم عن إنتاج فن عظيم أو كتب قيمة . وكان الأهلون يتكلمون اللغة الفهلوية ، ويكتبون بالآرامية على الجلود ، وكانت الأرامية قد حلت وقتئذ محل الكتابة المسماية : ولم تبق لنا الأيام سطرأ واحداً من الآداب البارثية ، لكننا نعلم أن المسرحيات اليونانية كانت تمثل في طشقونة كما كانت تمثل في سلوقيا ، وذلك لأن رأس كراسس قد ظهر في أحد أدوار الماهيين ليورپديز . أما الصور والتماثيل التي كشفت في تدمر ، ودور - أورپس ، وأشور فكانت في أكبر الظن من صنع الفنانين الإيرانيين ؛ وكان امتزاج الطرازين اليوناني والشرقي ذلك الامتزاج الساذج ذا أثر في فن العصور التي تلت ذلك العصر في جميع بلاد آسية من الصين إلى القسطنطينية . وقد بقي لنا نقش واضح يمثل رامياً بالسهم على ظهر جواد ، ويوحى بأنه لو بقي لنا من فن البارثيين أكثر مما عثرنا عليه منه لكان تقديرنا لهذا الفن أعلى من تقديرنا الحالي (٣) .

وقد شاد أمير إقطاعي عربي من أتباع ملك بارثيا قصراً من حجر الجير في حترا Hatra القريبة من الموصل (٨٨ ق . م ؟) يحتوي على سبعة أبواب ذات عقود وقباب ، وشاده على طراز قوى ولكنه همجي . غير أن

أعمالا فيه بارثية من طراز حسن قد بقيت لنا في الأدوات الفضية وفي الحلى *
لكن البارثيين نبغوا في الفن المحبب إلى بنى الإنسان - ونعنى به زينة
الأجسام . لقد كان رجالهم ونساؤهم على السواء يعقبون شعورهم ، وكان
الرجال يطيلون لحاهم المجددة وشواربهم المتهدلة ، ويرتدى الواحد منهم
قيصا وسروالا منتفخا يعلوهما في العادة ثوب متعدد الألوان . أما النساء
فكن يرتدين أثوابا مطرزة تطريزا دقيقا جميلا ، ويزين شعرهن بالأزهار
وكان أحرار البارثيين يسلون أنفسهم بالصيد ، ويكثرون من الطعام
والشراب ، ولا يمشون على أقدامهم إذا استطاعوا الركوب . وكانوا
محاربين شجعانا ، وأعداء شرفاء ، يحسنون معاملة الأسرى ، ويقبلون
الأجانب في المناصب الكبرى ، ويحمون اللاجئين ، غير أنهم كانوا في
بعض الأحيان يبترون أعضاء المدنى من الأعداء ، ويعذبون الشهود ،
ويعاقبون على الذنوب الصغيرة بضرب السياط . وكان من عاداتهم تعدد
الزوجات . إذا أمكنتهم مواردهم من ذلك التعدد ، وكانت نساؤهم محببات
معزولات عن الرجال ، وكانوا يعاقبون نساءهم على الخيانة الزوجية بأقسى
العقوبات ، ولكنهم يبيحون الطلاق للرجال والنساء على السواء لا يكادون
يقيمون في سبيله عقبة ما^(٣) . ولما أن زحف سرينا Surena القائد البارثى
بجيشه على كراسس اصطحب معه مائتى حظية وألف بعير محملة بلوازمه^(٤) ،
والصورة التى تنطبع في أذهاننا عن البارثيين في جملتهم هى أنهم كانوا أقل
حضارة من الفرس الأكيمنيين ، وأشرف وأكرم أخلاقا من الرومان .
فقد كانوا متسامحين مع من يخالفونهم في الدين ، يجيزون لليونان ،
واليهود ، والمسيحيين المقيمين بين ظهرانيهم أن يقيموا شعائر دينهم دون
أن يتدخلوا في شؤونهم . أما هم أنفسهم فقد انحرفوا بعض الانحراف عن
الزرادشتية الصحيحة ، فكانوا يعبدون الشمس والقمر ، ويفضلون مراس
عن أهورا - مزدا فكانوا من هذه الناحية كثيرى الشبه بالمسيحيين

إذ يفضلون المسيح على يهوه . وقد كان لكهنة المحوس يد في القضاء على
الأسرة الأرساسية لأنهم لم يلقوا من ملوكها المتأخرين ما كانوا يتطلعون
إليه من الرعاية :

ولما توفي ملكهم فلوجاسس الرابع (٢٠٩ م) تنازع ولداه فلوجاسس
الخامس وأرتبانس الرابع على عرش المملكة . وانتصر أرتبانس في هذا
النزاع . ثم هزم الرومان في نزيب Nisibis : ودامت الحرب بين
الإمبراطوريتين ثلاثة قرون ثم انتهت بانتصار البارثيين نصرا غير حاسم
لأن سهول أرض الجزيرة كانت توائم خيالة البارثيين أكثر مما توائم فيالق
الرومان . ثم تورط أرتبانس بعدئذ في حرب داخلية لقي فيها حتفه وأعلن
أردشير أو أرتخشتر الشريف الإقطاعي في بلاد الفرس والذي غلبه على أمره
ملك الملوك (٢٢٧ م) رأسس الأسرة الساسانية . وعاد الدين الزرادشتي
على سابق عهده ، وبدأ في بلاد الفرس عهد من أعظم العهود التي مرت
بها في تاريخها الطويل .

الفصل الثمانى

المسمونيون

انتهز سيمون مكابى فى عام ١٤٣ ق . م فرصة النزاع القائم بين البارثيين ، والسلوقيين ، والمصريين ، والرومان فانزاع استقلال بلاد اليهود من أيدي الملوك السلوقيين . واختارته جمعية وطنية قائداً وكاهناً أعلى للدولة اليهودية الثانية (١٤٢ ق . م - ٧٠ م) ، وجعلت ثانى المنصبين وراثياً فى أسرته المسمونية ، وصارت بلاد اليهود مرة أخرى دولة دينية تحكمها هذه الأسرة أسرة الكهنة - الملوك ، ذلك أن من أخص خصائص المجتمعات السامية ارتباط السلطتين الروحية والزمنية فى الأسرة وفى الدولة لأنها تأبى أن يكون لها سيد إلا الله وحده ؛

وأدرك المسمونيون ضعف مملكتهم الصغيرة فقبضوا جيلين كاملين يوسعون حدودها بالدبلوماسية تارة وبالقوة تارة أخرى ، فلم يجل عام ٧٨ ق . م حتى كانوا قد ضموا إليهم السامرة ، وإدوم ، وموآب ، والجليل ، وإدوميا ، وما وراء نهر الأردن ، وجدارا ، وبلا ، وچراسا ، ورافيا (رفح) ، وغزة ، ووسعوا حدود فلسطين إلى ما كانت عليه فى عهد سليمان . وفرض خلفاء هؤلاء المكابيين البواسل الذين قاتلوا دفاعاً عن حريتهم الدينية الدين اليهودى والختان على رعاياهم الجدد بحد السيف^(٥) . وفقد المسمونيون فى الوقت نفسه غيرتهم الدينية ، واستسلموا شيئاً فشيئاً لما كان فى العناصر التى ضموها إلى بلادهم من نزعة هلنستية رغم احتجاج الفريسيين^(*) الشديد . غير أن الملكة شالوم اسكندرية

(*) شيعة يهودية تمتاز بتمسكها بالشرائع والأوامر الدينية ؛ وتطور معنى هذا اللفظ فى الزمن الحديث فصار يطلق على من يستمسك فى الدين بالشكل دون الجوهر أى المراتى .
(المترجم)

(٧٨ - ٦٩ ق : م) عكست هذا الاتجاه ، وعقدت الصلح مع الفريسيين ، لكن ولداها هركانس الثانى ، وأرستبولس الثانى أخذنا يتنازعا العرش قبل موتها ، وعرضت الطائفتان أمرهما على يمي ، وكان وقتئذ واقفا على رأس فيالقه المنتصرة فى دمشق (٦٣ ق . م) ، فلما انتصر يمي لهركانس تحصن أرستبولس وجيشه فى بيت المقدس ، فحاصر يمي تلك العاصمة ، واستولى على أجزائها السفلى ؛ ولكن أتباع أرستبولس احتتموا بأفنية الهيكل المسورة ، وظلوا يقاومون يمي ثلاثة أشهر . ويقول المؤرخون إن تقواهم أعانت يمي على هزيمتهم ، فقد شاهد أنهم لا يحاربون فى يوم سبتهم ، فأمر رجاله بأن يعدوا فى كل سبت الربا والكباش الهدامة التى سيستخدمها فى اليوم التالى ، ولم يكونوا يلقون مقاومة من اليهود فى ذلك الاستعداد ، بل كان الكهنة يقضون يومهم فى الهيكل يبتهلون ويقربون القرابين كعادتهم كل الأوقات . فلما أن تهدمت الأسوار ذبح من اليهود اثنى عشر ألفاً ، ولم يقاوم منهم إلا عدد قليل ، ولم ينج منهم أحد ، وقفز الكثيرون من فوق الأسوار فلاقوا حتفهم^(٦) . وأمر يمي رجاله بالألأ يمسا ما فى الهيكل من كنوز ، ولكنه فرض على الأمة اليهودية غرامة قدرها عشرة آلاف وزنة (٠٠٠ ر ٣٦٠٠ رىال أمريكى) ، ونقلت المدن التى كان المسمونيون قد فتحوها من حكم اليهود إلى حكم الرومان ، ونصب هركانس الثانى حاكما أعظم ، وحاكما بالاسم على بلاد اليهود ، ولكنه كان فى حراسة أنتباتز الإيدومينى الذى أعان رومة فى هذه الحزب . وهكذا قضى على المملكة المستقلة وأصبحت بلاد اليهود جزءاً من ولاية سوريا الرومانية .

وبينا كان كراسس فى طريقه إلى طشقونة فى عام ٤٤ ق . م - وهى الحماة التى قطع فى رأسه وجىء به ليمثل فى بلاط ملك البارثيين دور بنيثوس فى مسرحية الباخين - نهب ما أبقى عليه يمي من كنوز الهيكل ، وكان يبلغ مقداره عشرة آلاف وزنة . ولما أن جاء البشير بأن كراسس هزم وقتل

اغتم اليهود هذه الفرصة ليستعيدوا حريتهم ، ولكن لنجيس الذي عين واليا على سوريا بعد كراسس أخذ الثورة وباع ثلاثين ألفاً من اليهود في أسواق الرقيق (٤٣ ق . م) (٧) . ومات أنتباتر في تلك السنة ، وزحف البارثيون على بلاد اليهود مخترقين الصحراء وعينوا أنتجونس آخر المسمومين ملكا على البلاد يآتمر بأمرهم ويخضع لمشيتهم . وقابل أنطونيوس وأكتافيان هذا العمل بتعيين هيرود بن أنتباتر ملكا على بلاد اليهود وأعانوا جيشه اليهودى بالأموال الرومانية . فطرد هيرود البارثيين من البلاد وحى أورشليم من السلب والنهب ، وأرسل أنتجونس إلى أنطونيوس ليعلمه ، وذبح جميع زعماء اليهود الذين عاونوا الملك الصورى ، وتهميات له بذلك أسباب حكم يعد من أكثر العهود إشراقا فى التاريخ (٣٧ - ٤ ق . م) .

الفصل الثالث

هيرود الأكبر

كانت أخلاقه مثالا من أخلاق عصره الذى أنجب كثيراً من الرجال الذين كانوا أذكىاء لا خلاق لهم ، قادرين لا ضمير لهم ، شجعاناً مجردين من الشرف . لقد كان صورة مصغرة من أغسطس فى بلاد اليهود : فعل فيها ما فعله أغسطس فى رومة فاستبدل بنفوضى الحرية نظاماً دكتاتورياً ، وجعل عاصمته بالمباني والتماثيل اليونانية الطراز ، ووسع رقعة مملكته ، ونشر فيها الرخاء ، وكسب بالختل والسياسية أكثر مما كسبه بقوة السلاح ، وتزوج كثيراً من النساء ، وقضت عليه خيانة أبنائه ، واستمتع بكل ما يتيح له الحظ المواتى عدا السعادة . ويصفه يوسفوس بأنه رجل قوى البأس ، عظيم المهارة ، بارع رعى السهام والحراب ، صياد عظيم اقتنص فى يوم واحد أربعين وحشاً . وكان « محارباً لا يستطيع إنسان أن يقف فى وجهه » (٨) . وما من شك فى أنه أضاف إلى هذه الصفات شخصية جذابة ، فقد كان فى وسعه على الدوام أن يتغلب بقوة الحججة أو بكثرة الرشا على أعدائه الذين حاولوا أن يشوا به عند أنطونيوس أو كليوباترة ، أو أكتافيان . وقد خرج من كل الأزمات التى حدثت بينه وبين الحكومة الثلاثية فى رومة وهو أقوى سلطاناً وأوسع ملكاً مما كان ، وسرعان ما اقتنع أغسطس بأن له « رومة أعظم من أن تسعها أملاكه الصغيرة » ، فأعاد إلى مملكته مدائن فلسطين الهسمنونية ، وتمنى لو أن هيرود قد حكم سوريا ومصر بالإضافة إلى أملاكه (٩) . ولقد كان « الإديومى Idumean » رجلاً كريماً خلا قلبه من الرحمة ، أفاء على رعاياه من النعم ما لا يعادله إلا ما أصابهم به من الأذى .

ولقد كان من العوامل التى شكلت أخلاقه ، ما كان يضمه له الذين غلبهم

على أمرهم أو قتل أهلهم من بغض شديد ، وما يكنه له الشعب الممتعض من طغيانه والمشمئز من أصله الأجنبي من عدااء واحتقار : وقد ارتفع إلى العرش بمساعدة رومة وأمواها ، وبقي إلى آخر عمره صديقاً وخاضعاً للسلطة التي كان الشعب يآتمر بالليل والنهار ليخضع عنه نيرها ويسترد حرته منها . وقد ثقل عبء الضرائب التي فرضها على بلاده ذات الموارد الاقتصادية الضئيلة ليستمتع بها بلاطه المترف ويحقق بها منهاجه الضخم في البناء الذي لا تطيقه الثروة القومية . وما لبث هذا العبء الثقيل أن قصم ظهرها واستنزف جميع مواردها . وحاول هيرود أن يهدئ نائرة شعبه بمختلف الوسائل ، ولكن جهوده كلها لم تجده نفعاً . من ذلك أنه نزل عن المتأخر من الضرائب عن السنين الماضية ، وأقنع رومة بأن تخفض مقدار الجزية المفروضة على بلاده ، وحصل لليهود على مزايا في البلاد الأجنبية ، وأنقذ البلاد إنقاذاً عاجلاً من التحط وغيره من الكوارث ، وحافظ على الأمن والنظام في الداخل وسلامة البلاد من الأعداء في الخارج ، ونمي موارد البلاد الطبيعية . وفي عهده قضى على اللصوص وقطاع الطريق ، ونشطت التجارة ودب ديب الحياة في الأسواق والثغور . لكن الملك في الوقت نفسه أثار غضب الشعب بفساد أخلاقه ، وقسوته العقاب ، وموت أرسطوبولس حفيد هركانس الثاني والوارث الشرعي لعرش البلاد غريباً « مصادفة » في الحمام ، وأخذ الكهنة الذين قضى على سلطتهم ، والذين عين هو رؤساءهم ، يآتمرون به ، وحقد عليه الفرسيون لما بدا من أنه يعترم صلب بلاد اليهود بالصبغة اليونانية .

ذلك أن هيرود كان يحكم كثيراً من المدن التي كانت يونانية أكثر منها يهودية . سكانها وثقافتها ؛ وقد تأثر بما تمتاز به الحضارة الهلنية من رقة وتنوع ؛ هذا إلى أنه لم يكن يهودياً في أصله أو موثقاً بهذا الدين عن عقيدة ؛ وقد دعاه هذا كله بطبيعة الحال إلى العمل على توحيد ثقافة مملكته ، وخلع مظاهر الروعة والجلال على حكمه بتشجيع أساليب الحياة ، والملابس ، والأفكار ،

والآداب ، والفنون اليونانية . وقد أحاط نفسه بالعلماء اليونان ، وعهد
إليهم الإشراف على الشؤون العليا في الدولة ، وعين نقولاس الدمشقي ،
وهو رجل يوناني ، مستشاره ومؤرخه الرسمي . وقد أنشأ في أورشليم داراً
فخمة للتمثيل ومندرجاً وزينهما بتماثيل لأغسطس وغيره من الوثنيين ، وأنفق
في ذلك أموالاً طائلة ، وأدخل في بلاده الألعاب الرياضية والمباريات
الموسيقية اليونانية ، وصراع المجتالدين الروماني (١٠) ، وجعل أورشليم بمبان
أخرى على طراز معمارى بدا للشعب أنه طراز أجنبي ، وأقام في الأماكن
العامة تماثيل يونانية أثارت دهشة اليهود وغضبهم بعريها كما أثار غضبهم عرى
المصارعين في الألعاب الرياضية . وقد شاد لنفسه قصرأ أقامه بلا ريب على
الطراز اليوناني وملاه بالذهب والرخام والأثاث الفخم الثمين ، وأحاطه بمحاذيق
واسعة محتدياً في ذلك حذو أصدقائه الرومان . وقد صدم مشاعر الشعب
بقوله إن الهيكل الذى شاده زرب بابل منذ خمسة قرون كان ضيقاً ، وإنه
يعتزم أن يهدمه ويقم في مكانه هيكلأ أوسع منه . ولم يبال باحتجاج الأهليين
ومخاوفهم ، وحقق رغبته بأن أقام المعبد الفخم الذى دمره تيتس فيما بعد .

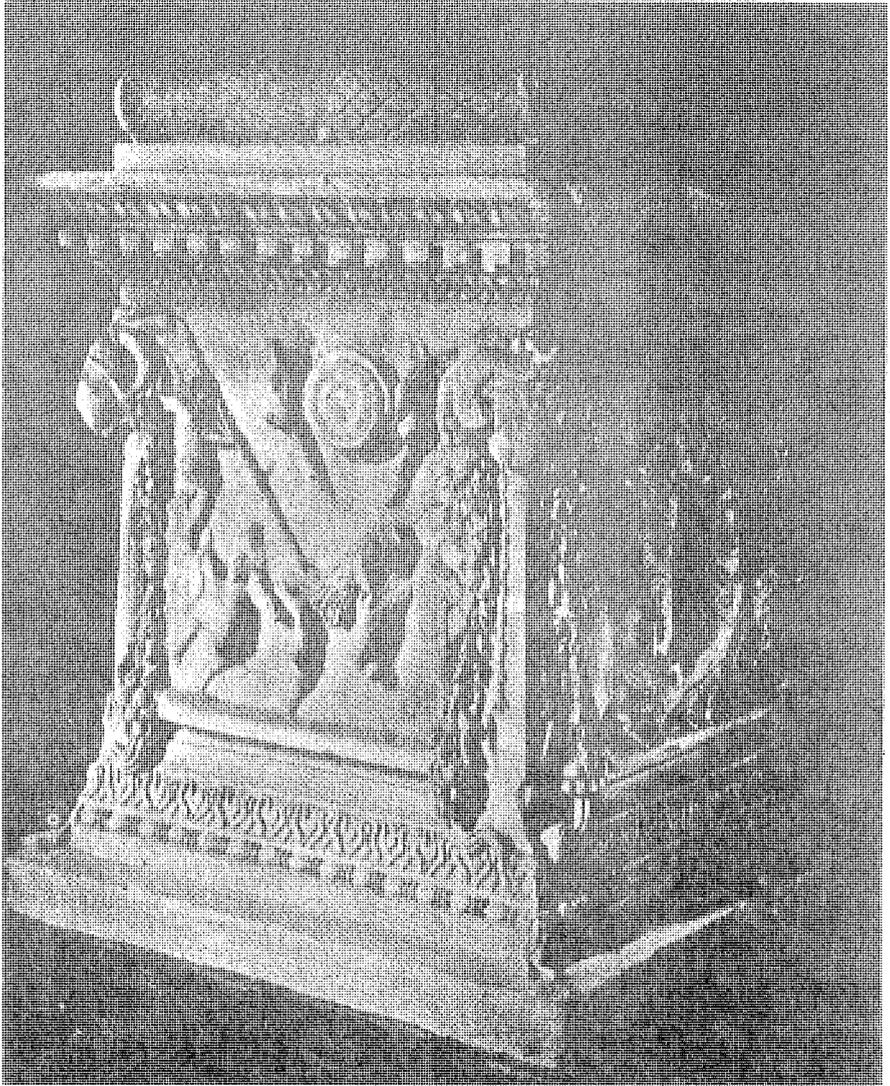
وقد سوى على جبل موريا أرضاً تقرب مساحتها من سبعمائة وخمسين
قدماً مربعة ، وأقام على أطرافها أروقة ذات سقف من خشب الأرز
« ذات نفوس عجيبة » تعتمد على صفوف متعددة من العمد الكورنثية ،
كل عمود من كتلة واحدة من الحجر تبلغ من الضخامة حدأ يصعب معه على
ثلاثة رجال أن يطوقوها بأذرعهم . وكان في هذا البهو الرئيسي مظلات
للصرايين ، الذين يبدلون نقود الأجانب بالنقود التى تقبل في الهيكل .
وكان فيها أيضاً المرابط التى يستطيع الإنسان أن يشتري منها ما يريد
أن يقربه من الحيوانات ، والغرف أو الأروقة التى يجتمع فيها الطلاب لتعلم
اللغة العبرية والشريعة ، والمتسولون الصخابون الذين لا مفر من وجودهم
في كل مكان . ومن هذا « الهيكل الخارجى » يصعد بمجموعة من
الدرج إلى فضاء داخلى مسور يحرم على غير اليهود أن يدخلوه . وكان

في هذا الفضاء « بهو النساء » الذي « يأوى إليه الطاهرون من الرجال مع نسائهم » (١١) . ومن هذا الحرم الثاني يصعد العابد على مجموعة أخرى من الدرج ويمر خلال أبواب مصفحة بالفضة والذهب إلى « بهو الكهنة » حيث يقوم الهواء الطلق المذبح الذي تقرب فيه المحرقات إلى بهو . وتلى هذه درج أخرى يمر الصاعد فوقها خلال أبواب من البرنز يبلغ ارتفاعها خمسا وسبعين قدماً واتساعها أربعاً وعشرين ، تعلوها كرمة ذهبية ذاتمة الصيت ، وتؤدي إلى بناء الهيكل الرئيسي الذي لا تفتح أبوابه إلا للكهنة وحدهم . وقد شيد هذا البناء كله من الرخام الأبيض على هيئة طباق تتدرج في الصغر كلما علت ، وصفححت واجهته بالذهب ، وقسم داخله قسمين يفصلهما ستار مزركش يمتد في عرض فراغه ، فيه من الألوان الأزرق والأرجواني والقرمزي . وأمام هذا الستار كانت المائدة (*) الذهبية ذات الفروع السبعة ، ومذبح البخور والمائدة وعليها « خبز التقدمة » غير المحتمر الذي يقدمه الكهنة لبهوه ومن خلف الستار قدس الأقداس . وكان الهيكل القديم يحتوى على مبخرة ذهبية وعلى تابوت العهد ، ولكن هذا التابوت لم يكن يحتوى على « شئ قط » كما يقول يوسفوس . ولم تكن قدم الإنسان تطأ هذا المكان إلا مرة واحدة في العام وذلك في يوم الكفارة حين يدخله الكاهن الأكبر وحده . وقد استغرق بناء الأجزاء الرئيسية من هذا الصرح التاريخي ثمانية أعوام ، أما أعمال نقشه وتزيينه فقد ظلت قائمة ثمانين عاماً ، ولم تتم إلا قبيل مجيء فيالق تيتس (١٢) .

وكان الناس يفخرون بهذا الهيكل العظيم الذي كان يعد من عجائب العالم في عهد أغسطس ، وكادوا لعظمته وبهائه يتجاوزون عن وجود عمده الكورنثية القائمة عند أبوابه ، وعن النسر الذهبي الذي يتحدى عقيدة اليهود

في تحريم الصور المنحوتة ، والذي كان يرمز عند مدخل الهيكل لرومة
عدوة اليهودية وسيدتها . وكان اليهود العائدون إلى مدائن فلسطين ينقلون
أبناء العمار اليونانية الخالصة التي كان هيرودس يجدد بها تلك المدائن ، وكيف
ينفق أموال الأمة والذهب (كما تقول الشائعات) الذي كان نجبوا في قبر
دواد^(١٣) في إنشاء مرفأ عظيم عند قيصرية ، وفي إهدائه بسخاء للمدن
الأجنبية أمثال دمشق ، وبيباوس ، وبيروت ، وصور ، وصيدا ،
وأنطاكية ، ورودس ، وبرجموم ، وأسبارطة ، وأثينة . واتضح لهم أن
هيرودس يريد أن يكون معبود العالم اليوناني لا ملك اليهود فحسب ، لكن
اليهود كانوا يعيشون بدينهم ، وبإيمانهم بأن يهوه سينقذهم من الرق والظلم
في يوم من الأيام ؛ ومن أجل هذه كان انتصار الروح الهلنية على الروح
العبرانية في شخص حاكمهم نذيراً لهم بكارثة مدلومة لا تقل عما حل بهم من
الاضطهاد على يدي أنتيوخس . ولذلك أخذوا يحكيون المؤامرات لقتل
هيرودس ، وكشف هو هذه المؤامرات وقبض على المشتركين فيها وعذبهم
وقتلهم ، ولم يكتف بقتلهم وحدهم بل قتل أسرهم كلها في بعض
الأحيان^(١٤) . وأطلق عيونه بين الشعب وتخفى ليتجسس بنفسه على رعاياه ،
وكان يعاقبهم على كل كلمة تشتم منها رائحة العداة له^(١٥) .

واستطاع أن يرد كيد أعدائه في نخورهم عدا كيد أزواجه وأبنائه .
وكان له من الأزواج عشر اجتمعت منهن تسع في وقت واحد ، أما الأبناء
فكان له منهم أربعون . وكانت مريمي Mariamne زوجته الثانية حفيدة
هركانس الثاني وأخت أرسنبولس اللذين قتلها هيرودس . ويصفها
يوسـفوس بأنها امرأة عفيفة ، ولكنها فظة بعض الفظاظاة بغريزتها ،
تعامل زوجها بغيرسة وكبرياء لأنها رأته مغرماً بها غراماً يخضعه لها
كأنه ملك يمينها وكانت فضلاً عن فظاظتها تشهر بأمه وأخته
علناً ، لأنهما من أصل حقير ، وتستطيل في عرضهما إلى حد « امتلأت
معه القلوب . » في بيت الملك « بفضاً وحقداً » . واستطاعت أخت



(شكل - ٩) ملهح وجد في آسيا محفوظ في متحف تروى برومة

هيرود أن تقنعه بأن مريمى تأتمر به لتدس له السم ، فوجه هذه التهمة لزوجه أمام أعضاء المحكمة ؛ فحكموها بالإعدام ونفذ فيها الحكم . غير أن هيرود كان يرتاب فى جريماتها ، فعجن جنونه من فرط الندم فترة من الزمان ، وأخذ يردد اسمها جهرة ، ويرسل خدامها ليستدعوها ، واعتزل المناصب العامة ، وآوى إلى الصحراء « يعذب فيها نفسه أشد العذاب » حتى جىء به إلى قصره محمواً شارداً العقل ، واشتركت أم مريمى مع جماعة آخرين فى مؤامرة ترمى إلى خلعه ، ولكنه استرد قواه العقلية وعرشه فجاءه ، وأعلم المتآمرين . وبعد قليل من ذلك الوقت قدم له أنتياتر ابنه من زوجته الأولى أدلة تثبت وجود مؤامرة دبرها ولداه من مريمى ألكسندر وأرستبولس ، فعرض الأمر على مجلس مؤلف من مائة وخمسين رجلاً حكماً على الشابين بالإعدام (٦ ق . م) . ولم يمض على ذلك عامان حتى اتهم نقولاس الدمشقى أنتياتر نفسه بأنه يتآمر على انتزاع العرش من أبيه . وأمر هيرود بابنه فجىء به إليه . « وأخذ يبكى ويذكر ما لقيه من النكبات على يدي أبنائه » (١٦) وطاف بقلبه طائف الرحمة ساعة من الزمان أمر فيها بسجن ولده .

وكانت قوى الملك الشيخ فى هذه الأثناء تنهار بتأثير الحزن والمرض ؛ فقد أصيب بداء الإستسقاء ، والقروح ، والحمى ، والتشنج ، والنفس الكريه الرائحة . وحاول أن يقتل نفسه بعد أن أحبط ما أحبط من المؤامرات لاغتيالاً ، ولكنه منع من تنفيذ قصده . ولما سمع أن أنتياتر يحاول إرشاء حراسه ليطلقوا سراحه أمر هيرود بقتله ، ولم تمض على ذلك إلا خمسة أيام حتى مات هيرود نفسه (٤ ق . م) فى التاسعة والستين من عمره مكروهاً من جميع شعبه . ويقول أعداؤه عنه إنه « تسلل إلى العرش تسلل الثعلب ، وحكم حكم النمر ، ومات ميتة الكلب » .

الفصل الرابع

الشريعة وأنبياؤها

أوصى هيرود قبل وفاته أن تقسم مملكته بين أبنائه الثلاثة الباقين أحياء . فحكم فليب الإقليم الشرقي المعروف باسم بنتانيا Bantanea ، الذي يحتوى على مدائن بيت سيده ، وكبتولياس ، وجراسا ، وفلدلفيا ، وبصرى . وحكم هيرود أنتياس پيريا Peraea (الأرض الواقعة وراء نهر الأردن) ، والجليل فى الشمال حيث توجد أزدريلا ، وطبرية ، والناصره . وكان نصيب أركلوس سمريتس ، وإيدوميا ، ويهوذا . وكان فى هذا القسم الأخير كثير من المدن والبلدان الشهيرة أمثال بيت لحم ، وحبرون ، وپير سبع ، وغزه ، وجدارا ، وإموس ، ويمنيا ، ويافا ، وقيصرية ، وأريجة ، وأورشليم . وكانت بعض المدن الفلسطينية تغلب عليها الصبغة اليونانية ، وبعضها تغلب عليه الصبغة السورية ، ويدل وجود الخنازير فى جدارا على وجود غير اليهود فيها . وكان الوثنون هم الكثرة الغالبة فى المدن الساحلية ما عدا يافا ، ويمنيا فى « المدن العشر » القائمة على شاطئ نهر الأردن أما فى الداخل فيكاد السكان أن يكونوا كلهم من اليهود . وكان هذا الانقسام العنصرى ، غير الخيب إلى رومة ، مأساة فلسطين .

وإذا أردنا أن نفهم سبب اشمزاز اليهود الصالحين من شرك المجتمع الوثنى وما كان يسوده من فساد خلقى فعلىنا أن نرجع إلى زمن المتطهرين المتزمطين فى إنجلترا . لقد كان الدين عند اليهود مصدر شريعتهم ، ودولتهم ، وآمالهم ، وكانوا يظنون أنهم إذا رضوا أن يذوب هذا الدين فى نهر الهلنية الجارف كان هذا بمثابة انتحار لقوميتهم ؛ ومن ثم نشأت تلك البغضاء بين اليهود وغير اليهود التى جعلت تلك الأمة الصغيرة تقضى حياتها كلها فى نزاع عنصرى واضطراب سياسى ،

وحروب متقطعة ، يخبونها نارها كلها تارة ثم تعود فتأهب من جديد . يضاف إلى هذا أن يهود يهوذا كانوا يحتقرون أهل الجليل ويصفونهم بالمروق من الدين ، بينما كان أهل الجليل يحتقرون أهل يهوذا ويصفونهم بأنهم أرقاء وقعوا في شرك الشريعة . هذا إلى ما كان هناك من نزاع لا يتقطع بين أهل يهوذا والسامريين لأن هؤلاء يدعون أن يهوذا لم يختص صهيون موطناً له بل اختار موطنه تل جرزيم الواقع في بلادهم ، وإلى رفضهم جميع أسفار الكتاب المقدس ما عدا أسفار موسى الخمسة^(١٥) . وكان الذي يجمع بين هذه الأحزاب كلها هو كراهيتها لسيطرة الرومان ، التي كانت تتقاضى من البلاد ثمناً باهظاً نظير ميزة السلم غير المحببة إليهم .

وكان يسكن فلسطين وقتئذ نحو مليونين ونصف مليون من الأنفس يقيم منهم في أورشليم وحدها نحو مائة ألف^(١٦) . وكان معظمهم يتكلمون اللغة الآرامية ، وكان كهنتهم وعلمائهم يفهمون العبرية ، أما الموظفون والأجانب ومعظم المؤلفين فكانوا يستعملون اللغة اليونانية . وكان معظم السكان يشتغلون بالزراعة ، يحرثون الأرض ويسقون الزرع ، ويعنون بالحدائق والكروم ، ويرعون الضأن . وكانت فلسطين في حياة المسيح تنتج من القمح ما يكفي أهلها وتبقى منه فضلة تصدر منها إلى الخارج^(٢٠) .

وكان بلحها ، وتينها ، وعنبها ، وزيتونها ، ونبيلها ، وزيتها غالبية الثمن يبتاعها الناس من جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ؛ وكان أهلها لا يزالون يعملون بالأمر القديم الذي يحتم عليهم أن يتركوا الأرض بوراً في السنة السبتية^(*) . وكانت الصناعات اليدوية وراثية في أغلب الأحيان ، وكان الصناعات ينظمون عادة في طوائف . وكان اليهود يعظمون العامل وكان معظم العلماء يعملون بأيديهم كما يعملون بألسنتهم . وكان الأرقاء أقل عدداً منهم في أى بلد آخر من بلاد البحر الأبيض المتوسط . وازدهرت التجارة الصغرى في البلاد ، ولكن عدد التجار اليهود ذوى الثراء والتجارة الواسعة كان لا يزال قليلاً فيها .

(*) أى السنة السابعة التي تترك فيها الأرض للراحة . (المترجم)

وفي ذلك يقول يوسفوس : « لسنا أمة تجارية ، فنحن نعيش في بلد (بلاد اليهود الشرقية) عديم السواحل ، ولا نميل إلى الاشتغال بالتجارة (الخارجية) » (٢٢) . وظلت الأعمال المالية ضيقة النطاق حتى ألغى هلل Hillel القانون الوارد في سفر تثنية الإشتراع (الأصحاح الخامس عشر - ١١) والذي يطلب فيه إلغاء الديون مرة كل سبع سنين ، وكان الهيكل نفسه مصرفهم القومي .

وكان في داخل الهيكل هو الجازيث ، ملتحق السنهدين أو المجلس الأعظم المكون من كبار إسرائيل . وأكبر الظن أن هذا المجلس قد نشأ في أثناء حكم السلوقيين (حوالي عام ٢٠٠ ق . م) ليحل محل المجلس الأول الوارد ذكره في سفر العدد (الآية السادسة عشرة من الأصحاح الحادى عشر) والذي يسدى فيه النصح لموسى . وكان الخاخام الأعظم هو الذى يختار فى بادئ الأمر أعضاء المجلس من بين طبقة الأشراف الكهنوت ، ثم أصبح من حقه فى عهد الرومان أن يختار أعضاؤه لعضويته عدداً متزايداً من الفريسيين ، وعدداً قليلاً من فقهاء الشريعة الموسوية المخترفين (٢٣) . وكان أعضاؤه البالغ عددهم واحداً وسبعين عضواً يدعون أنهم أصحاب السلطة العليا على جميع اليهود أيا كان موطنهم ، وكان اليهود المستمسكون بدينهم فى كل مكان على الأرض يعترفون لهم بهذه السلطة ، أما المهسمونيين ، وهيرود ، ورومة فلم يكونوا يعترفون لهم إلا بسلطانهم على من يخرج على الشريعة اليهودية من يهود بلادهم الأصلية ، فقد كان فى وسعهم أن يحكموا بالإعدام على من فيها من اليهود إذا ارتكبوا جريمة دينية ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون تنفيذ الحكم إلا إذا وافقت عليه السلطة المدنية (٢٤) .

وكان فى الجمعية حزبان يتناحان السيطرة عليها ، كما يتناحان السيطرة على معظم الجمعيات الأخرى ، أحدهما حزب المحافظين الذين يترجمهم كبار الكهنة والصدوقيون (*) ، والذين سماوا بهذا تسمية إلى صدوق مؤسس هذه الطائفة

(*) شعبة من اليهود الأرستقراط المتشككة عاشت فى أيام العهد الجديد لا تمتدده بالبعث ولا بالدار الآخرة . (المترجم)

وكان أعضاؤه وطنيين في مبادئهم السياسية ، مستمسكين بدينهم ، ينادون بفرض التوراة أو الشريعة المكتوبة على الأمة اليهودية ، ولكنهم كانوا يرفضون ما عدا هذا من العقائد أمثال الأحاديث والتقصص الشفوية التي يتناقلها رجال الدين ، ولتفاسير الطليقة التي يقول بها الفرسيون . وكانوا ييرتابون في خلود الروح ، ويتمنعون بامتلاك طيبات هذا العالم .

وكان الصدوقيون هم الذين سمو الفرسيين بهذا الإسم (البروشيم أى الانفصاليين) . ويقصدون بهذه التسمية أنهم قد فصلوا أنفسهم (كما انفصل البرهمة الصالحون) عن الذين تدنسوا بإهمال ما تفرضه عليهم طقوس التطهير (٢٥) . وكانوا هم خلفاء الكسديم أو نساك العصر المكابي الذين كانوا ينادون بوجوب التزام قواعد الشريعة الموسوية إلى أبعد الحدود . وقد عرفهم يوسنوس ، وهو منهم ، بأنهم « شيعه من اليهود يجهرون بأنهم أكثر استمساكا بالدين من سائر أبناء ملتهم ، وبأنهم أدق من غيرهم في تفسير شرائعهم » (٢٦) . ولكي يصلوا إلى ما يبغونه من هذا التفسير الدقيق أضافوا إلى أسفار موسى الخمسة المكتوبة الأحاديث والروايات الشفوية المشتبهة على التفسيرات والأحكام التي وردت على ألسنة معلمى الشريعة المعترف بهم . ويرى الفرسيون أن هذه التفاسير ضرورية لإزالة ما في قوانين موسى من نموض ، وليبان طريقة تطبيقها على الحالات الفردية ، ولتعديل حرفيتها في بعض الأحيان حسب ضرورات الحياة وظروفها الدائمة التغير .

وقد جمع هؤلاء الناس بين الصرامة واللين ، فكانوا يخففون من صرامة الشريعة في بعض المواضع كما فعلوا في أوامر هلال الخاصة بالربا ، ولكنهم كانوا يهتمون على الناس أن يتقيدوا بالروايات الشفوية كما يتقيدون بالتوراة المنزلة . ذلك أنهم كانوا يحسون بأن لا نجاه لليهود من انقراضهم وامتصاص الشعوب الأخرى لهم إلا بإطاعة هذه الأوامر المسطورة والمتواترة . وإذ كان

الفرسيون قد ارتضوا أن يخضعوا لسلطان الرومان فقد كانوا يطلبون السلى .
فما يأملونه من الخلود الجمانى والروحى : وكانوا يحيون حياة بسيطة ،
يتعدون فيها عن الترف وينددون به ، ويكثر من الصوم ، ويعنون
بالاغتسال ، ويتباهون من حين إلى حين باستمساكهم بالفضيلة مباحاة تضايق
السامعين . ولكنهم كانوا يمثلون قوة اليهود الأخلاقية ، وقد نالوا تأييد
الطبقات الوسطى وغرسوا فى نفوس أتباعهم إيماناً وأحكاماً أنقذتهم من
الانحلال والتضعض حين ألمت بهم المصائب : ولما أن خرب الهيكل (٧٠م)
فقد الكهنة نفوذهم ، وأصبح الفرسيون عن طريق الأبحار هم المعلمين
والرعاة لذلك الشعب الذى تشتت فى بقاع الأرض ولكنه لم تحق به الهزيمة .

وكانت أكثر شيع اليهود طرفاً شيعة الإسينية التى أخذت تنواها عن
الكسدية ، وأكبر الظن أن اسمها مشتق من اللفظ الكندي اسشاي Aschai
(المستحم) ، وأن أعضاءها أخذوا عقائدهم وعباداتهم من نظريات الزهاد
ونظمهم التى كانت منتشرة فى العالم فى القرن الأول قبل المسيح : ولعلمهم
لقد تأثروا أيضاً بآراء البراهمة ، والبوذيين ، والمجوس عبدة النار ،
والفيثاغوريين ، والكليبيين ، وهى الآراء التى جاءت إلى أورشليم ملتقى
الطرق التجارية فى غرب آسية . وكان عددهم فى فلسطين يبلغ أربعة آلاف ،
وقد نظموا أنفسهم فى هيئة مستقلة عن غيرها ، وكانوا يستمسكون أشد
الاستمساك بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة ويعيشون معاً عيشة انزباب
الزاهدين ، يزرعون الأرض فى واحة إنجادى Engadi وسط الصحراء
الواقعة غرب البحر الميت . وكانوا يسكنون منازل تمتلكها الجماعة التى
ينتسبون إليها ، ويطعمون مجتمعين وهم صامتون ، وينتخبون زعماءهم
بالاقتراع العام ، ويتخاطون متاعهم ومكاسبهم فى بيت مال مشترك ،
ويعملون بالشعار : « مالى ومالك ملك لك » (٢٧) :

ويقول يوسفوس إن حياة الكثيرين منهم كانت تطول أكثر من مائة عام ،

بفضل طعامهم البسيط ، وحياتهم المنتظمة (٢٨) . وكان الرجل يلبس ثياباً من نسيج التيل الأبيض ، ويحمل معه فأساً صغيرة ليغطي بها فضلاته ، ويغتسل بعدها كما يغتسل البراهمة ، ويرى أن التبرز في يوم السبت من أعظم الكبائر (٢٩) .

وكانت قلّة منهم تزوج وتعيش في المدن العامرة ولكنهم كانوا يسرون على القاعدة التي وضعها تولستوى وهي أنهم لا يضاعجون أزواجهم إلا يقصد إنجاب الأطفال . وكان أعضاء هذه الشيعة يتعدون عن جميع الملذات الجسمية ، ويسعون إلى الانصال الصوفى بالله عن طريق التأمل والصلاة . وكانوا يأملون أن ينالوا يتقوى الله وبصيامهم واستغراقهم في التأمل والتفكير علم الغيب وقوة السحر . وكانوا كعظم معاصريهم يؤمنون بالملائكة ، والشياطين ، ويعتقدون أن المرض ناشئ من تسلط الأرواح الخبيثة على الآدميين ، فكانوا لذلك يحاولون طرد هذه الأرواح بالتعاون السحرية . ومن « عقيدتهم السرية » جاءت بعض « أجزاء القبلة » (٣٠) . وكانوا ينتظرون نزول المسيح لينشئ على الأرض مملكة شيوعية سماوية (ملسوس شمائم) يتمتع الناس كلهم فيها بالمساواة ، ولا يدخلها إلا من كانت حياته تقية طاهرة (٣١) . وكانوا شديدى التحمس في الدعوة إلى السلام ، يأبون أن يصنعوا شيئاً من أدوات الحرب ؛ غير أنهم انضموا إلى غيرهم من الشيع اليهودية في الدفاع عن مدينتهم وهيكلها حين هاجت فيالقي تيتس بيت المقدس وهيكل ، وظلوا يقاتلون حتى لم يكذب يبق منهم أحد . وإذا ما قرأنا وصف يوسفوس لعاداتهم وآلامهم وجدنا أننا قد دخلنا جو المسيحية :

« ومع أنهم قد عذبوا ، وحرّقوا ، وقُطعت أجسامهم ، ولاقوا جميع ألوان العذاب لكي يرغبوا على التجديف في حق صاحب شريعتهم ، أو أكل ما نهوا عن أكله ، فإنهم أبوا أن يفعلوا هذا أو ذاك ، أو أن

يتملقوا معذبهم ، أو تنحدر من أعينهم دمعة واحدة ، بل لانهم كانوا يتبسمون وسط آلامهم المرحة ، ويضحكون ساخرين ممن يعذبونهم ، ويجودون بأرواحهم وهم مبتهجون ، كأنهم يتوقعون أن تعود لهم هذه الأرواح مرة أخرى » (٣٢) .

أولئك هم الصمدوقيون ، والفرسيون ، والإسنيون ، أشهر الشيع الذينية اليهودية في الجيل السابق لميلاد المسيح . أما الحكمون (Scribes) الذين يضمنهم يسوع إلى الفرسيين في كثير من الأحيان فلم يكونوا شيعة من شيع اليهود بل كانوا أبناء مهنة خاصة ؛ كانوا علماء متفقيين في الشريعة ، يحاضرون فيها في البيع ، ويعلمونها في المدارس ، ويناقشونها في المجتمعات العامة والخاصة ، ويطبّقونها على الأحكام في القضايا المختلفة . وكان عدد قليل منهم أجبّاراً ، وبعضهم صدوقيين ، وكثرتهم فرسيين . وكانوا في القرنين السابقين لهلل كما كان الأجبّار من بعده . كانوا هم فقهاء القانون في بلاد اليهود ، وقد صارت فناوهم القانونية ، التي صفاها الزمان ، وتداولتها الألسن ، وانتقلت بالسماع من المعلم إلى التلميذ ، صارت هذه الفتاوى جزءاً من الأحاديث الشفوية التي كان يعظمها الفرسيون كما يعظمون الشريعة المكتوبة . وبفضل ما كان لهم من نفوذ وسلطان نمت شرائع موسى حتى ضمت آلافاً من التعاليم المفصلة التي تواجه كل ظروف الحياة وأحوالها .

وأقدم شخصية واضحة معروفة بين معلمى القانون من غير رجال الدين هي شخصية هلل . وحتى هذه الشخصية الواضحة تكاد تخفى معالمها في ذلك النسيج الواهي من الخرافات التي حاكها حول اسمه الخلف المفتن به . ويقول مؤرخوه إنه وُلد في مدينة بابل (٧٥ ق م) من أسرة كريمة معروفة أختى عليها الدهر . ثم جاء إلى أورشليم بعد أن اكتملت رجولته ، وأخذ يعول زوجته وأبناءه بالعمل اليدوي . وكان يؤدي نصف أجره اليومي ثمناً لقبوله في المدرسة التي كان فيها أستاذان شهيران هما شميا وأبتوليم يشرحان الشريعة . وعجز يوماً من الأيام

عن أداء هذا الأجر ، فلم يسمح له بالدخول ، فتساق العتبة السفلى لإحدى النوافذ « لكي يستمع إلى ألفاظ الإله الحى » . وتقول القصة إن جسمه تجمد من شدة البرد ، فسقط فوق الثلج ، وعثر عليه فى صباح اليوم الثانى وهو بين الحياة والموت (٣٣) . وصار هو فيما بعد حراً محترماً ، اشتهر بتواضعه ، وجملده ، ودماثة أخلاقه . وتمول إحدى القصص إن بعض الناس راهن على أن. يغضب هلال وإنه خسر الرهان (٣٤) . وقد وضع ثلاث قواعد ليهتدى بها الناس فى حياتهم : حب الناس ، وحب السلم ، وحب الشريعة ومعرفتها . وسأله رجل يريد أن يهتدى أن يفسر الشريعة فيما لا يزيد من الزمن على الوقت الذى يستطيع أن يقف فيه على قدم واحدة ، فأجابه بقوله : « لا تفعل مع غيرك ما تكرهه لنفسك » (٣٥) (*) . وكان هذا القول صورة سلبية حذرة من تلك القاعدة الذهبية التى صاغها اللاويون فى صيغتها الموجبة من زمن بعيد .

ومن تعاليم هلال الأخرى قوله : « لا تحكم على جارك حتى تكون أنت فى مكانه » (٣٧) . وقد حاول أن يهدئ نائرة الشيع المتنازعة بوضعه سبع قواعد لتفسير الشريعة . وكانت تفسيراته هى نفسها قائمة على الحرية والتسامح ، وأهم ما فيها أنه يسر إقراض المال ، والحصول على الطلاق . وكان هو نفسه ناشراً للسلام لا مصلحاً .

وكان من نصائحه للشبان الثائرين فى عصره : « لا تخرجوا على الجماعة » . وقد قبل هيرود على أنه شر لا بد منه ، وعيّن فى عهده رئيساً للسهنديين (٣٠ ق . م) ، وأحبته الأغلبية الفرسية حباً أبقاها رئيساً للمجلس الكبير إلى

(*) ويضيف التلمود إلى إجابة هلال ، العبارة الآتية : هذه هى الشريعة كلها ، وكل ما عدا ذلك شرح وتعليق عليها « (٣٦) .

يوم وفاته (١٠ م) . ثم جعل هذا المنصب من بعده وراثياً في أسرته مدى
أربعمائة عام تعظيماً لذكراه .

وخص المجلس مكان الشرف الثاني فيه لمنافس هيل ، وهو الحبر شامى
المحافظ . وكان يفسر الشريعة تفسيراً أدق وأضيق من تفسير هيل ، ولا يجوز
الطلاق ، ويطالب بتطبيق التوراة تطبيقاً حرفياً ، لا يراعى فيه تغيير الظروف .
وكان انقسام المعلمين اليهود إلى محافظين وأحرار قائماً قبل هيل بمائة عام
وظل قائماً حتى خرب الهيكل .

الفصل الخامس

الأمل الأكبر

تكاد الآداب اليهودية التي وصفت إلينا من ذلك العصر تكون كلها آداباً دينية . ذلك أنه قد بدا لليهودى المتمسك بدينه أن من الخطأ أن يكتب في الفلسفة أو الأدب إلا إذا كان الغرض النهائى من هذه الكتابة أن يحمد الله ويمجد الشريعة ؛ كما كان يبدو له أن صنع التماثيل للإله إثم كبير وأن تزوين الهياكل بالفنون التشكيبية امتهان لها وانتهاك لحرمتها . ولا حاجة إلى القول بأن هناك بعض حالات استثنيت من هذا التحريم قد تكون قصة سوزانة الطريفة مثلاً لها . وخلاصة هذه القصة أن كبيرين تنقصهما المعرفة التامة اتهما زوراً فتاة يهودية جميلة بسوء السيرة ، وأنها برئت بفضل براعة شاب يدعى دانيال في مناقشة الشهود ، وقد وجدت هذه القصة طريقها إلى بعض طبعات سفر دانيال .

وقد يكون سفر يشوع بن سيراخ الذى نسميه سفر الحكمة مما كتب في ذلك العهد المتأخر . وهو واحد من أسفار كثيرة تسمى الأپوكريفيا - أى « الخفية » أو غير الموثوق بها والتي لا يعترف اليهود بها ضمن أسفار العهد القديم المنزلة . وهى ملأى بالجمال والحكمة ، ومن أجل هذا فهى غير جديرة بأن تطرد من صحبة سفر الشريعة وسفر أيوب . ونجد في أصحاباتها الأربعة والعشرين ما نلجده في الأصحاح الثامن من سفر الأمثال عن عقيدة الكلمة المحسدة : « الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم : منذ الأزل مسحت ، منذ البدء منذ أوائل الأرض » . وبين عامى ١٣٠ ق . م ، ٤٠ م نشر يهودى إسكندرى - أو عدد من اليهود الهلنستيين - سفر أمثال سليمان ، وهو سفر يحاول ، كما حاول فيلو ، أن يوفق بين اليهودية والأفلاطونية ، ويهيب باليهود الذين ينادون بالاندماج في الثقافة اليونانية

أن يعودوا إلى الشريعة ، كل هذا في نثر لا يقل في جزالته وقوته عن أى نثر آخر منذ عهد إشعياً . وأقل من هذا السفر قوة وجزالة سفر مزامير سليمان (حوالى ٥٠ ق . م) ، ويكثر فيه التنبؤ بظهور منقذ لإسرائيل .

ويسرى هذا الأمل في النجاة من رومة ومن العذاب الدنيوى على يد منقذ إلهى في كل ما كتب في هذا العصر من أدب يهودى إلا القليل النادر منه . واتخذ الكثير منه صورة رؤى تهدف إلى إيضاح الماضى والتسامح فيه بعرضه على صورة إعداد لمستقبل مجيد يظهره الله على لسان رسول من عنده . وكان كتاب دانيال الذى كتب في عام ١٦٥ ق . م ليشجع إسرائيل على الوقوف في وجه أنتيخس إيفانيس ، لا يزال ذا ثاباً بين اليهود الذين لم يكونوا يعتقدون أن يهوه سيتركهم طويلاً تحت سيطرة الوثنيين . واتخذ كتاب أخنوخ ، وهو في أكبر الظن من عمل عدة مؤلفين عامى ١٧٠ ، ٦٦ ق . م صورة رؤى نزلت على الأب الأكبر الذى « سار مع الرب » في سفر التكوين (الآية ٢٤ من الإصحاح الخامس) . ويقص هذا السفر سقوط الشيطان ومن معه ، وما أدى إليه ذلك من حلول الشر والألم في حياة البشر ، ثم نجاة بنى الإنسان على يد مسيح ، وحلول مملكة السماء . وحوالى عام ١٥٠ ق . م شرع كاتب يهودى ينشر نبوءات سيبيلية صور فيها نبيات تلتصر لليهودية على الوثنية ، وتتنبأ بفوز اليهود النهائى على أعدائهم .

والراجع أن فكرة الإله المنقذ قد جاءت إلى غربى آسية من بلاد فارس أو بابل (٣٨) . فالتاريخ كله والحياة كلها قد صوراً في الديانة الزرادشتية في صورة صراع بين قوى النور المقدسة وقوى الظلمة الشيطانية ؛ ثم يأتى في آخر الأمر منقذ - شوسبانت أو مئراس - ليحكم بين الناس ويقيم حكم العدالة والسلام الدائمين . وكان يبدو للكثيرين من اليهود أن حكم رومة جزء من انتصار الشر القصير الأجل ، ولهذا كانوا ينددون بما في حضارة « الكفار » من شراهة ، وغدر ، ووحشية ، ووثنية ، وما في العالم الأبيقورى من « كفر بالله » وعبادة

للشهوات . وقد جاء في سفر الحكمة أن المنافقين قالوا في أنفسهم مفتكرين
افتكاراً غير مستقيم :

« إن عمرنا هو يسير ومحزن ، ووفاة الإنسان ليس لها شفاء ، ولم يعرف
قط المحلول من اللحيم ، لأننا ولدنا من لاشيء ، وبعد هذه نكون كأننا
لم نكن لأن النسمة دخان في أنوفنا ، والنطق شرارة في تحريك قلوبنا ،
وإذا أطفئت بصير الجسم رماداً ، والروح ينسكب كالهواء المبعوث . واسمنا
سينسى في الزمان ، ولا يذكر أحد أعمالنا ، ويزول عمرنا كزوال أثر
الغمام ، ويضمحل كالضباب الذي بدده شعاع الشمس وتثقله حرارتها ،
لأن عمرنا ظل عابر وليس لأجلنا إبطاء لأنه أمر محتوم ولن يردده أحد .
فهلم إذن نتمتع بالحيرات الموجودة ، ونستعمل الملدات في البرية ما دام
زمان الشبوية ، فنمتلي* من الخمر الفائقة والطيوب ، ولا يفوتنا نسيم زهر
الربيع . نتكامل بفتحاح الورد قبل ذبوله ، ولا يكون مرج إلا يجوز
عليه تنعمنا » (٣٩) .

ويقول صاحب هذا السفر إن ثلاثة من الأبيقوريين يداون بحجج
باطلة . ولأنهم يربطون عربتهم بنجم ساقط لأن اللذة شيء باطل زائل :
« لأن رجاء المنافق كغبار تحمله الرياح ، وكرغوة رقيقة تقدها الزوبعة ،
وكدخان ينحل في الرياح ، وكذكر ضيف مكث يوماً واحداً وارتحل : أما
الصديقون فيحيون إلى الدهر ، وعند الرب ثوابهم ، وعند العلى اهتمامهم .
فهذا يتقلدون مملكة البهاء وتاج الكمال من يد الرب » (٤٠) .

وسيقضى على عهد الشر والإثم - كما تقول أسفار الرؤيا - إما بتدخل الله
نفسه ، أو بإرساله إلى الأرض ابنه أو ممثله المسيح* . أو لم ينبي به النبي إشعيا

(*) وقد وردت كلمة مسيح (وهي بالعبرية محسيح) في كثير من المواضع في العهد
القديم . وترجمها اليهود الذين كتبوا الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة (حوال ٢٨ ق م) .
باللفظ اليوناني **christos** أى الذى صب عليه الزيت المقدس أو منسج به .

قبل ذلك ذلك العهد بمائة عام إذ يقول : « لأنه يولد لنا ولد ونعطي ابناً وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجبياً مشيراً ، لها قديراً ، أباً أبدياً ، رئيس السّلام » (٤١) .

وكان كيثيرون من اليهود يتفقون مع إشعيا (١١ : ١) فيما وصف به المسيح من أنه ملك دنيوى يولد من بيت داود الملكى ؛ ومنهم من يسمونه باسم ابن الإنسان كأخنوخ ودانيال ، ويصورونه بأنه سينزل من السماء . أما الفيلسوف صانتخب بنحو الأمثال والشاعر صياحب بحكمة يسليمان (٤٢) . فلهما قد تأثرا بأفكار أفلاطون أو بروح الأرض التى يقول بها الرواقيون فتصوروه الحكمة مجسدة التى هى أول شيء « قناها الرب » ، وهى الكلمة أو العقل (logos) التى لن تلبث أن يكون لها شأن عظيم فى فلسفة أفلاطون . ويكاد مؤلفو سفر الرويا كلهم يجمعون على أن المسيح سينتصر انتصاراً سريعاً ، ولكن إشعيا تصوره فى فترة من أروع فقراته بأنه : محترق ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ومختبر الحزن . . . لكن أحزانتنا حملها وأوجاعنا تحملها . . . وهو مجروح لأجل معاصبتنا مسحوق لأجل آثامنا . . . ويجبره شفيئنا . . . والرب وضع عليه إثم جميعنا . . . من الضمخطة ومن الدينونة أخذ وفى جيله من كان يظن أنه قطع من أرض الأحياء . . . وهو حمل خطيئة كثيرين وشفع فى المذنبين » (٤٣)

بيد أنهم جميعا متفقون على أن المسيح سيخضع الكفار آخر الأمر ، ويحرر إسرائيل (٤٤) ويتخذ أورشليم عاصمة له ، ويضم إليه الناس جميعا ليؤمنوا بهوه والشريعة الموسوية (٤٥) . ويسود بعد ذلك « عصر طيب » تسعد به الدنيا بأجمعها فتكون الأرض كلها خصبة ، وتحمل كل حبة قدر ما كانت تحمله ألف مرة ، ويصير الخمر موفوراً ، ويزول الفقر ، ويصبح الناس كلهم أحماء ، مستمسكين بالفضيلة ، وتسود العدالة والصدقة والسلام فى الأرض (٤٦)

وكان بعض الناس يظنون أن هذا العهد الصالح ستمخله عهد غير صالحه :

وأن قوى الظلمة والشر ستبذل جهدها الأخير للهجوم على هذه المملكة السعيدة ، وأن العالم سيحترق في الفوضى واللهب ؛ وسيقوم الموتى في « يوم الدينونة الأخير » ليحاسبوا أمام « قديم الأيام » (يهوه) أو أمام « ابن الإنسان » ، وسيكون له السلطان المطلق الأبدي على العالم بعد أن تجدد وصالح ، أى على مملكة الله ؛ وسيُلقى الأشرار وهم صامتون « في الجحيم » ، أما الأخيار فسيسُقبلون في دار النعيم الأبدي .

ولقد كانت الحركة الفكرية في بلاد اليهود في جوهرها مماثلة للحركة الفكرية الدينية الوثنية المعاصرة لها : شعب كان فيما مضى إذا فكر في المستقبل يحرص تفكيره فيما سوف يوؤل إليه مصيره القومي ، ثم فقد الآن ثقته بالدولة التي ينتمى إليها ، وأخذ يفكر في النجاة الروحية الفردية . وكان الدين ذو الطقوس الخفية الغامضة قد بعث هذا الأمل في صدور الآلاف المؤلفة من اليونان ، وفي بلاد الشرق الهلنستي وإيطاليا ؛ ولكن هذا الأمل أو الحاجة إليه لم يكونا في بلد من البلاد أقوى مما كان في بلاد اليهود . فلقد كان الفقراء أو المحرومون ، والمظلومون أو المحترقون في هذه الأرض يتطلعون إلى أن يرسل لهم الله من ينجيهم ويرفع عنهم نير الدل والعذاب . وتقول أسفار الرويا إن هذا المنقذ لن يطول غيابه وإنه حين ينتصر سيرتفع إلى الجنة كل العادلين ، حتى من كان منهم في القبور ، ليتمتعوا فيها بالنعيم السرمدي . وكان القديسون الشيوخ ، أمثال شمعون ، وكانت النساء المتصوفات أمثال أنا ابنة فانيول يقضون حياتهم حول المعبد ، صائمين يترقبون ، ويصلون ، ويتضرعون لعلهم يرون هذا المنقذ قبل وفاتهم . وكان هذا الترقب يملأ قلوب الناس :

الفصل السادس

الثورة

ظل اليهود يكافحون قرونا طويلة ، ولما أن مات هيرودس الأعظم نبذ الوطنيون نصائح هلال السلمية وأعلنوا الثورة على خليفته أركلوس وعسكروا في خيام حول المعبد : فقتل جنود أركلوس ثلاثة آلاف ، كان كثيرون منهم قد جاءوا إلى أورشليم ليحتفلوا بعيد الفصح (٤ ق م) ، لكن الثوار عادوا إلى التجمع في عيد العنصرة وتعرضوا في هذه المرة إلى ما تعرضوا له من قبل من قتل ، وحرقت أروقة الدير ونهب الجنود ما فيه من الكنوز ، واستحوذ اليأس على الكثيرين من اليهود فقتلوا أنفسهم . ثم تألفت عصابات من الوطنيين في الريف وهددوا حياة كل من يؤيد رومة ، ومن هذه العصابات واحدة تحت قيادة بوداس الجولوني استولت على صفورة عاصمة الجليل : وزحف فارس حاكم سوريا على فلسطين بعشرين ألفاً من رجاله ، وهدم مئات من بلدانها ، وصاب ألفين من الثوار : وباع ثلاثين ألفاً من اليهود في أسواق الرقيق . وذهب وفد من زعماء اليهود إلى رومة وطلب إلى أغسطس أن يلغى الملكية في بلاد اليهود : فاستجاب أغسطس لطلبه وعزل أركلوس وجعل البلاد ولاية رومانية من الدرجة الثانية وعين عليها حاكماً مستولاً أمام والى سوريا (٣٦) .

ونعمت هذه البلاد المضطربة بفترة صغيرة من السلام في عهد تيبيريوس ، فلما جلس كلجيولا على العرش أراد أن يجعل عبادة الإمبراطور ديناً يوحد به أجزاء الإمبراطورية المختلفة فأمر أن تشمل كل العبادات قرباناً يقرب لصورته وأصدر تعليماته إلى الموظفين في أورشليم أن يضعوا تمثاله في الهيكل .

وكان اليهود في عهد أغسطس وتيبيريوس قد خطوا نصف الطريق إلى

ترضية الأباطرة بأن كانوا يضحون ليهوه باسم الإمبراطور ، ولكنهم كانوا ينفرون أشد النفور من وضع تمثال منحوت لرجل وثني في هيكلهم ، وبلغ هذا النفور درجة دفعت آلافاً منهم - على حد قول الرواية الماثورة - إلى أن يذهبوا إلى حاكم سوريا ويطلبوا إليه أن يذبحهم وإن لم يرتكبوا ذنباً قبل أن ينفذ هذا المرسوم^(٤٩) . وحلّ كلجيو لا هذا المشكل بموته . وأقنع أجرينيا حفيد هيرودس الإمبراطور كلوديوس فعينه ملكاً على فلسطين كلها تقريباً (٤١) ، فلما مات أجرينيا انطلقت الفتنة مرة أخرى من عقابها ، وأعاد كلوديوس البلاد إلى ما كانت عليه في عهد أغسطس وعين عليها حاكماً من قبيل رومة (٤٤) .

وكان معظم الرجال الذين اختارهم معاتيقه ليشغلوا هذا المنصب عاجزين أو سفلة . ومن هؤلاء فليكس الذى عينه أخوه پلاس Pallas والذى « حكم بلاد اليهود » - كما يقول تاسنس - « بقوة الملك وروح الرقيق »^(٥٠) . وكان فستس Festus أعدل من فليكس ، ولكنه توفى في أثناء هذه المحاولة . وجد ألبينس Albinus - إذ جاز لنا أن نصدق يوسفوس - في النهب وفرض الضرائب ، وجمع ثروة طائلة بإطلاق المحرّمين من السجون نظير أجر يتقاضاه منهم حتى « لم يبق أحد في السجن إلا من لم يتقاض منه شيئاً »^(٥١) . وسلك فلورس Florus - كما يقول هذا الكاتب صديق الرومان المعجب بهم - مسلك « الجلاد لا مسلك الحاكم » فنهب مدناً بأكملها ، ولم يكتف بأن يسرق هو نفسه ، بل تغاضى عن سرقات غيره . إذا نال سهماً من الغنيمة . بيد أن هذه الأقوال يشتم منها رائحة العداوة الحزبية ؛ وما من شك في أن الحكام هم الآخرون كانوا يشكون من أن اليهود شعب مشاكس ليس من السهل إخضاعه .

وتألفت عصابات من « المتحمسين » و « القبائين » ليحتجوا على هذا الفساد . وأقسم أعضاؤها أن يفتالوا كل يهودى خائن ، فكانوا يتعمنون وسط الجماعات في الشوارع ويطعنون ضحاياهم من خلفهم ، ثم يمتنون

بين الجاهير في الفوضى التي تعقب عملهم هذا^(٥٢) . ولما أن اغتصب فلورس سبع عشرة وزنة (٢٠٠٠ ريال أمريكي) من كنوز الهيكل ، اجتمع أمامه جمهور غاضب يطلبون عزله ؛ وأخذ جماعة من الشبان يطوفون بالمدينة وبأيديهم سلات يطلبون الصدقات له لأنه يعاني مرارة الفقر . لكن فيالقي فلورس بددت شمل المجتمعين ، ونهبت مئات من البيوت ، وذبحت ساكنيها ، وقبض على زعماء الفتنة ، وجلدوا وصلبوا . ويقول يوسفوس إن ٣٦٠٠ يهودي قتلوا في ذلك اليوم^(٥٣) . وأخذ شيوخ العبرانيين وأثريائهم يدعون الناس إلى الصبر ، وحجتهم في هذا أن الثورة على هذه الإمبراطورية القوية ليست إلا انتحاراً قومياً ؛ أما الشبان والفقراء فكانوا يهتمون هؤلاء بخور العزيمة ومحاباة الظالمين .

• وانقسمت المدينة ، وانقسمت كل أسرة تقريباً بين هذين الحزبين ، فاستولى أحدهما على الجزء الأعلى من أورشليم ، واستولى الآخر على جزئها الأدنى ، وأخذ كلاهما يهاجم الآخر بكل ما يصل إلى يده من سلاح . ووصل الأمر في عام ٦٨ إلى نشوب معركة دامية بين الحزبين انتصر فيها المتطرفون وقتلوا ١٢ و ١٠٠٠ يهودي من بينهم الأغنياء كلهم تقريباً^(٥٤) ، وهكذا استعالت الفتنة ثورة . وأحاطت قوة من العصاة بالحامية الرومانية المعسكرة في مسادا Massada ، وأقنعتها بأن تلتقي سلاحها ، ثم قتلت رجالها عن آخرهم . وفي ذلك اليوم نفسه حدثت في قيصرية عاصمة فلسطين مذبحة هائلة ذبح فيها غير اليهود من السكان عشرين ألفاً من اليهود ، وبيع آلاف غيرهم ببيع الرقيق . وذبح غير اليهود من سكان دمشق عشرة آلاف يهودي في يوم واحد^(٥٥) . وقام اليهود المخنفون بتدمير عدد كبير من المدن اليونانية في فلسطين وسوريا ، وأحرقوا بعضها عن آخرها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها كما قتل منهم هم أيضاً كثيرون ؛ ويقول يوسفوس في هذا : « وكان من المناظر المألوفة في ذلك الوقت أن نرى المدن مملوءة يبحث الموتى . . . ملقاة فيها دون أن تدفن ، وأن نشاهد جثث الشيوخ إلى جانب

جثث الأطفال وبينها جثث النساء عارية من كل غطاء (٥٦) . وقبل أن يحل شهر سبتمبر عام ٦٦ كان الثوار قد استولوا على اورشليم وعلى فلسطين كلها تقريباً ، وحذب حزب السلم وفقد أنصاره ، وانضم معظم أعضائه إلى الثوار .

وكان من بين هؤلاء كاهن يدعى يوسفوس ، وكان وقتئذ شاباً في الثلاثين من عمره ، نشيطاً ، نابهاً ، وهب من الذكاء ما يستطيع به أن يحيل كل شهوة من شهوته فضيلة . وكلفه الثوار بتحصيلين الجليل ، فدافع عن حصنها جوتوباتا ضد قوات فسبازيان المحاصرة لها ، حتى لم يبق من حاميتها اليهودية على قيد الحياة غير أربعين جندياً اختبئوا معه في كهف من الكهوف . وأراد يوسفوس أن يسلم بالجنود فسبازيان ، ولكن رجاله أنذروه بالقتل إن حاول التسليم . وإذا كانوا يفضلون الموت على الأسر ، فقد أقنعهم بأن يحددوا بطريق القرعة الترتيب الذي يقتل به كل منهم على يد من يليه : ولما ماتوا جميعاً ولم يبق إلا هو وواحد منهم أقنعه بأن ينضم إليه في الاستسلام للعدو . وقبيل أن يرسل إلى رومة مكيلين بالأغلال تقياً يوسفوس أن فسبازيان سيصبح إمبراطوراً ، فأطلقه فسبازيان من الأسر ، وقربه إليه شيئاً فشيئاً وجعله ناصحاً أميناً له في حربه ضد اليهود . ولما سافر فسبازيان إلى الإسكندرية صحب يوسفوس تيس في حصار اورشليم .

وكان اقتراب الفيالق الرومانية لإيدانا بضم صفوف اليهود وتأليفهم وحدة حانقة متعصبة وإن جاء ذلك بعد فوات الأوان . ويقول تاسيتس إن ٦٠٠٠٠ من الثوار تجمعوا في المدينة ، وإن « كل من يستطيع الانخراط في سلك الجندية قد تسليح ونزل إلى الميدان » ، وإن الروح العسكرية في النساء لم تكن أقل منها في الرجال (٥٧) . ونادى يوسفوس من بين صفوف الرومان أهل المدينة بالمحاصرين إلى الاستسلام ، ولكنهم اتهموه بالخيانة ، وحاربوا إلى آخر رجل

فيهم . وحاول اليهود بعد أن نفذت مؤونتهم اختراق الصفوف للحصول على الطعام . قأسر الرومان آلافاً منهم وصلبوهم ، ويقول يوسفوس إن « هؤلاء بلغوا من الكثرة حداً لم تتسع معه الأرض لإقامة الصليبان ، ولم يوجد من الصليبان ما يكفي لأجسامهم » . وازدهمت شوارع المدينة بحيث الموتى في المراحل الأخيرة من الحصار الذي دام خمسة أشهر . وكانت جماعات من النهابين تطوف بالموتى وتقطع أجسامهم وتنهب ما لهم ، ويقال إن ١١٦٠٠٠ رطل من الذهب ألقيت من فوق أسوار المدينة وإن بعض اليهود بلعوا قطعاً من الذهب وخرجوا خلسة من أورشليم ، وإن الرومان أو السوريين الذين قبضوا عليهم شقوا بطونهم أو بحثوا في برازهم ليحصلوا على ما ابتلعوه من الذهب (٥٨) . ولما استولى تيتس على نصف المدينة عرض على الثوار شروطاً ظنّها لينة ، فلما رفضوها أضرمت فرق الحراقين الرومان النار في الهيكل فلم يلبث هذا الصرح العظيم ، وكان معظمه مشيداً من الخشب ، أن احترق بأكمله . وقاتل الباقون من المدافعين عن المدينة قتال الأبطال ، فخورين كما يقول ديوبموتهم في حرمه (٥٩) . فمنهم من قتل بعضهم بعضاً ، ومنهم من ألقوا بأنفسهم على سيوفهم ، ومنهم من قفزوا في اللهب . ولم يرحم المنتصرون أحداً ، بل قتلوا كل من استطاعوا أن يقبضوا عليه من اليهود . وقد قبض على ٩٧٠٠٠ وبيعوا في أسواق الرقيق ، ومات كثيرون منهم في المجتادات بعد أن سيقوا مرغمين إلى الألعاب التي أقيمت ضمن احتفالات النصر في بيروت . ، وقيصرية ، وفلباى ، ورومة . ويقدر يوسفوس عدد من هلك من اليهود في هذا الحصار وما أعقبه من حوادث بمليون ومائة وسبعة وتسعين ألفاً . أما تاستس فيقدرهم بستائة ألف (٧٠ م (٦٠)) .

ودامت المقاومة في أماكن متفرقة حتى عام ٧٣ ، ولكن تدمير الهيكل كان في واقع الأمر نهاية الفتنة ونهاية الدولة اليهودية . وصودرت أملاك الذين اشتركوا فيها وبيعت ، وكادت الدولة اليهودية أن تخلو من اليهود .

وعاش من بقي منهم فيها عيش الكفاف . وكان أفقر فقرائهم يرغم على أن
يؤدى للهيكل الوثني في رومة نصف الشاقل الذي كان العبرانيون الصالحون
يؤدونه في كل عام لصيانة هيكل أورشليم . وألغيت مناصب كبار الكهنة
والسنهدين : واتخذت اليهودية الصورة التي احتفظت بها إلى أيامنا هذه :
صورة دين بلا معبد مركزي ، ولا كهنوت مسيطرين عليه ، ولا قرابين .
واختفت طائفة الصدوقيين ، وأصبحت الفريسيون والأحبار زعماء شعب
لا وطن له ، لم يبق له إلا معابده .

الفصل السابع

التشتيت

لقد كانت هجرة مليون من اليهود أو تشريدهم مما عجل انتشارهم في جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ، ومن أجل هذا أرخ علماءهم تشتيتهم من الوقت الذي دمر فيه هيرودس الهيكل . ولقد رأينا أن هذا التشتيت بدأ بالسبي أو الأسر البابلي قبل ذلك الوقت بستة قرون وأنه تجدد باستيطانهم في الإسكندرية . وإذا كانت كثرة التناسل مما يحتمه الدين اليهودي والشريعة اليهودية على الصالحين المتقين ، وإذا كان وأد الأطفال محرماً عليهم . فإن انتشار اليهود كانت له أسباب من علم الأحياء نفسه فضلاً عن الأسباب الاقتصادية ؛ وكان لا يزال لليهود بعض الشأن القليل في تجارة العالم . وقد قال عنهم استرابون قبل سقوط أورشليم بخمسين عاماً قولاً لا يخلو من المغالاة التي أملت عليها نزعته المعادية للسامية : « يصعب على الإنسان أن يجد في العالم المعمور كله مكاناً واحداً خالياً من هذا الجنس من الناس ، أو غير مملوك له » (٦١) . ووصف فيلوقيل التشتيت بعشرين عاماً « القارات . . . الملائى بالمخلات اليهودية ومثلها . . . الجزائر وبلاد بابل كلها تقريباً » (٦٢) . وما وافى عام ٧٠ من بعد الميلاد حتى كان آلاف من اليهود في سلوقية على نهر دجلة وفي غيرها من مدائن باورثيا . وكانوا كثيرى العدد في بلاد العرب ، ومنها عبروا البحر إلى بلاد الحبشة ، وكانوا في سوريا وفينيقية وكانت لهم جالية كبيرة في طرسوس ، وأنطاكية ، وميليتس ، وإفسوس ، وسرديس ، وأزمير . وكانوا أقل من ذلك بعض الشيء في ديلوس ، وكورنثة ، وأثينة وفلپاي وبيريه ، وسلانيك . أما في غرب البحر الأبيض فكانت هناك جماعات من اليهود في قرطاجنة ، وسرقوسة ، وپتيولي ، وكپوا ، وپمبي ، ورومه ، وحتى

فنزيا موطن هوراس نفسها لم تكن تخلو من اليهود . وفي وسعنا أن نقدر عدد اليهود في الإمبراطورية الرومانية إجمالاً بنحو سبعة ملايين أى نحو ٧٪ من سكانها وضمنى نسبتهم إلى سكان الولايات المتحدة الأمريكية في هذه الأيام (٦٣) .

وقد أثاروا بكثرة عددهم ، ولباسهم ، وطعامهم ، وختانهم ، وفقدهم ، وطعمهم ، وورختهم ، وعزلتهم ، وذكائهم ، ونفورهم من الصور وتشددهم في مراعاة السبب رغم ما يسببه ذلك من العنت لهم ، أثاروا بهذا كله حركة عدااء للسامية تختلف من المزاج في الملاحى ، والسخرية بهم في أفوال جوفنال وتاستس ، إلى ذبحهم فرادى في الشوارع ، وقتلهم زرافات في المذابح المدبرة . وقد نصب أبون الإسكندرى نفسه مدافعاً عن هذه الهجيات ، ورد عليه يوسفوس برسالة صارمة شديدة اللهجة (*) .

وسافر يوسفوس مع تيتس إلى رومة . بعد سقوط أورشليم ، وصحب قاهر بنى جنسه في موكب نصر عرض فيه أسرى اليهود والمغانم اليهودية . ومنحه فسپازيان حق المواطنة الرومانية ، ووظف له معاشاً وخصص له مسكناً في قصره ، وأقطعته أرضاً خصبة في بلاد اليهود (٦٤) . وتسمى يوسفوس نظير هذا باسم أسره فسپازيان ، وهو فلافيوس ، وكتب تاريخ حرب اليهود (حوالى عام ٧٥) ، ليدافع عن أعمال تيتس في فلسطين . ويرر انشقاؤه على بنى جنسه ، ويشيط بعزائم اليهود إذا ما فكروا في الخروج على رومة مرة أخرى بإظهاره قوتها وبأسها . واشتد إحساسه بعزلته في شيخوخته فألف كتاباً في قهرم اليهود أراد به أن يستعيد عطف بنى جنسه بأن يصور لغبر اليهود ما قام به هذا الشعب من جلائل الأعمال ، ويصف عاداتهم وأخلاقهم . وقصصه في هذا الكتاب واضح قوى ،

(٥) وقد أبتج يوسفوس حين علم أن قرحة قد اضطرت أبون إلى الاعتنان .

ووصفه ليرودس الأكبر لا يقل إمتاعاً عن وصف أفلو طرخس ، ولكن تحيزه والغرض الذى يكتب من أجله يفسدان موضوعية الكتاب . وقد تطلب قهرم اليهود عدة سنين وأنهمك قوى المؤلف ، فلم يستطع أن يتمه ، وكتب أمناء سره الكتب الأربعة الأخيرة من العشرين كتاباً التى يتألف منها هذا المجلد الضخم مستعينين على كتابتها بمذكراته^(٦٦) . ولم يكن يوسفوس قد جاوز الخامسة والستين من عمره حين نشر الكتاب ، ولكنه كان قد ضعفت قواه متأثرة بحياة المغامرات ، والجدل ، والعزلة الأخلاقية .

واستطاع اليهود أن يعيدوا بالتدرج بناء حياتهم الاقتصادية والثقافية فى فلسطين . وبينما كان الحصار مضروباً على أورشليم فر من المدينة تلميذ شيخ من تلاميذ هلال يدعى يوهنان بن زكاي لأنه خشى أن يبيد المعلمون كلهم فى المذبحة فلا يبتى من ينقذ الأحاديث الشفوية . ولما خرج من المدينة أقام مجمعا علميا فى كرم عند يبنى أو يمينا قرب شاطئ البحر الأبيض المتوسط . ولما سقطت أورشليم نظم يوهنان سنهليريتا جديداً فى يمينا ، ولم يولّفه من الكهنة ، والسياسيين ، والأثرياء بل ألفه من الفرسيين والأخبار أى معلمى الشريعة . ولم يكن لهذا المجلس المعروف باسم بيت الديرين أية سلطة سياسية ، ولكن معظم يهود فلسطين كانوا يعترفون بسلطانه فى جميع الشؤون المتعلقة بالدين والأخلاق . وكان الخاخام الذى يختاره المجلس رئيسا له يعين الموظفين الإداريين المشرفين على الجماعات اليهودية ، وكان من حقه أن يخرج من حظيرة الدين من لا يرضى عنهم من اليهود . وكان من أثر النظام الصارم الذى فرضه الخاخام جليليل الثانى (حوالى سنة ١٠٠ م) أن توثقت الرابطة بين أعضاء المجلس أولاً ، ثم بين يهود يمينا ، ثم بين يهود فلسطين كلها فيما بعد . وحدث فى أيامه أن أعيد النظر فى التفسيرات المتناقضة للشريعة وهى التفسيرات التى نقلها هلال وشماى ، ثم أخذ الرأى عليها ، وكانت النتيجة أن قبلت معظم



(شکل - ۱۰) قوس تراچیان فی پینشتو

تفسيرات هلل وفرض على اليهود جميعهم أن يعملوا بها .
وإذ كانت الشريعة قد أصبحت وقتئذ الرابطة القوية التي لا غنى عنها
والتي تؤلف بين اليهود المشتتين الذين لا تؤلف بينهم دولة ، فقد أصبح تعليم
هذه الشريعة أهم عمل تقوم به الكنائس في جميع البلاد التي شئت فيها اليهود .
وحل المجمع محل الهيكل ، كما حلت الصلاة محل التضحية ، وحل الربان
محل الكاهن ، وأخذ الشراح (التنايم) يفسرون . مختلف القوانين اليهودية
المنقولة بطريق السماع (هلاكاً) ، وكانوا يؤيدون شروحهم في العادة
بعبارات يقتبسونها من الكتاب المقدس ، يضيفون إليها قصصاً وعظات
أو غيرها من المواد (هجاءاً) ويوضحونها بها في بعض الأحيان . وأشهر
هؤلاء التنايم هو الربان عكيبيا بن يوسف . وقد انضم هذا الربان ، وهو
في سن الأربعين ، إلى ابنة البالغ من العمر خمس سنين ، وذهباً معاً إلى
المدرسة فتعلم القراءة ، واستطاع في زمن قليل أن يتلو عن ظهر قلب جميع
أسفار موسى . وبعد دراسة دامت ثلاثة عشر عاماً افتتح له مدرسة تحت
شجرة تين في قرية قريبة من يمينيا . وقد كانت حماسته ، ومثاليته ،
وشجاعته ، وفكاهته ، بل وتعسفه الشديد سبباً في التفاف كثيرين من
الطلاب حوله . ولما جاءت الأنباء في عام ٩٥ ، أن دومتيان سيتخذ
لإجراءات جديدة ضد اليهود ، اختير أكيبيا وجماليل واثان آخران من اليهود
ليتصلا اتصالاً شخصياً بالإمبراطور . وبينما هم في رومة إذ توفي دومتيان .
واستمع نيرفا إلى رسالتهم وأظهر العطف على مطالبهم ، وألغى الضريبة
المفروضة على اليهود لإعادة بناء رومة .

ولما عاد أكيبيا إلى يمينيا أخذ على عاتقه أن يقوم بذلك للعمل الشاق الذي
قضى فيه بقية حياته ونعني به تقنين الهلاك ، وأتم هذا العمل من بعده تلميذه
الربان مير Meir وخليفتهما الأب يهوذا (حوالي ٢٠٠ م) . وقد بقيت الهلاك
حتى في هذه الصورة المصنفة جزءاً من الأحاديث الشفوية ، يتناقلها العلماء والحفاظ
المحترفون جيلاً بعد جيل - فكانوا هم النصوص الحية للشريعة الموسوية .

وكان في الطرق التي جرى عليها أكيبيا من السخف بقدر ما في النتائج التي وصل إليها من الصحة . وقد فسر الشريعة المسطورة تفسيراً عجيباً إذ جعل لكل حرف من حروفها معنى خفياً ثم استمد من هذا التفسير مبادئ حرة ؛ ولعل الباعث له على هذا التفسير ما لاحظته من أن الناس لا يقبلون الشيء المعقول إلا إذا كان في صورة غامضة خفية . وعن أكيبيا أخذ هذا التنظيم وذلك العرض لعلمى الدين والأخلاق اللذين انتقلا عن طريق التلمود إلى ابن ميمون ، ثم انتقلا آخر الأمر إلى أساليب الفلاسفة المدرسين .

وبلأ بلغ سن التسعين وضعفت قواه وأصبح من الرجعيين ألنى نفسه ، كما كان في أيام شبابه ، محوطاً بالثورة من كل الجوانب . ذلك أن يهود قورينة ، ومصر ، وقبرص ، وأرض الجزيرة ، رفعوا لواء الثورة على رومة مرة أخرى في عامى ١١٥ - ١١٦ ، وأخذ اليهود يقتلون غير اليهود ، وهؤلاء يقتلون أولئك حتى أصبح التقتيل هو العادة المألوفة في تلك الأيام . ويقول ديونان ٢٢٠٠٠ قتلوا في قورينة ، و ٢٤٠٠٠ في قبرص . وتلك أرقام لا يقبلها العقل بطبيعة الحال ، ولكننا نعرف أن قورينة لم تنتعش قط بعد هذا التخريب ، وأن اليهود ظلوا عدة قرون بعد ذلك الوقت لا يسمح لهم قط بدخول قبرص . ثم أخذت الفتن ، ولكن من بقى من اليهود ظلوا محتفظين بأملهم القوى في ظهور مسيح يعيد بناء الهيكل ويعيدهم هم ظافرين إلى أورشليم . وأشعل الرومان ، بحمقهم وبلاهم ، نار الثورة من جديد . ذلك أن هديران أعلن في عام ١٣٠ أنه يعتزم بناء ضريح لجوهر في مكان الهيكل ، ثم أصدر في عام ١٣١ مرسوماً بتحريم الختان وتعليم الشريعة اليهودية علناً (٦٧) . وكانت آخر وقفة وقفها اليهود في التاريخ القديم لاستعادة حريتهم في عام ١٣٢ بزعامة شمعون باركوشيا الذى ادعى أنه هو المسيح . وبارك أكيبيا هذه الثورة رغم أنه كان طول حياته يدعو إلى السلم ، وذلك حين اعترف باركوشيا أنه هو المنقذ .

وظل الثوار ثلاث سنين مستبسلين في قتال الفيالق الرومانية حتى هزموا آخر الأمر بعد أن نفذ طعامهم وعتادهم . ودمر الرومان ٩٨٥ مدينة في فلسطين وذبحوا ٥٨٠٠٠٠ يهودى ويقال إن الذين ماتوا من الجوع والمرض والحريق كانوا أكثر من هذا العدد . وخربت بلاد اليهود كلها تقريباً ، وخرّب باركوشيبا نفسه صريعاً أثناء دفاعه عن بيتار . وكان الذين بيعوا من اليهود في أسواق الرقيق من الكثرة بحيث انخفض ثمن الواحد منهم حتى ساوى ثمن الحصان . واختبأ آلاف منهم في سراديب تحت الأرض مفضلين ذلك على الأسر ؛ ولما أحاط بهم الرومان هلكوا من الجوع واحداً بعد واحد ، وكان الأحياء منهم يأكلون جثث الموتى (٦٨) .

وأراد هديران أن يقضى على ما فى اليهودية من رجولة وقدرة على الانتعاش ، فلم يكتف بتحرّيم الختان بل حرم معه الإسنبات والاحتفال بأى عيد من أعياد اليهود أو إقامة أى طقس من الطقوس اليهودية علناً (٦٩) . وفرضت ضريبة شخصية جديدة أكبر من الضريبة السابقة على جميع اليهود ، وحرم عليهم دخول تريت المقدس إلا فى يوم واحد محدد فى العام يسمح لهم فيه بالهجرة إلى دمشق ليبكوا أمام خرائب الهيكل . وقامت فى مواضع أورشليم مدينة إيليا كيتولينا الوثنية ، وشيد فيها ضريحان لجوهر وفينوس ، وساحات للرياضة وملاة وحمامات ، وحل مجلس يميناً وحرم على أعضائه الاجتماع ، وأجيز لمجلس عاجز أصغر منه أن يجتمع فى لدا Lydda . أما تعليم الشريعة جهرة فقد منع منعاً باتاً ، وأنذر كل من خالف ذلك بالإعدام ، وأعدم بالفعل عدد من الأجرار الذين خالفوا . وأصرّ أكيبا ، وكان وقتئذ الخامسة والتسعين من عمره ، على أن يعلم تلاميذه ، فزج فى السجن ثلاث سنين ، ولكنه لم ينقطع عن التعليم فى سجنه ، فحوكم ، وأدين ، وأعدم وهو ينطق بالعقيدة اليهودية الأساسية : « اسمى ، يا إسرائيل ، الرب إلهنا ، والرب واحد » (٧٠) .

وظل اليهود قرونًا عدة يعانون آثار النكبة التى حلت بهم بعد ثورة

پاركوشيا ، وإن كان أنطونينس پيوس قد خفف من صرامة مراسم هديران ، ودخلوا من هذه اللحظة في دور الكهولة ، وتخلوا عن كل العلوم الدنيوية ما عدا الطب ، وتبدوا المهلنسية على اختلاف صورها ، ولم يتلقوا السلوى أو الوحدة إلا من أحبارهم ، وشعرائهم الصوفيين وشريعتهم . ولسنا نعرف شعباً آخر قد طال نفيه كما طال نفي اليهود ، أو عانى من الأهوال مثل ما عانوا . لقد حرم عليهم أن يدخلوا المدينة المقدسة ، وأرغموا على تسليمها للوثنية ثم للمسيحية ، وشرّدوا في كل ولاية من ولايات الدولة الرومانية وإلى ما وراء حدود تلك الدولة ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، ولم يجدوا لهم صديقاً حتى بين الفلاسفة والقديسين ، فابتعدوا عن المناصب العامة وعكفوا في عزلتهم على الدرس والعبادة ، واستمسكوا أشد الاستمساك بأقوال علمائهم ، وأخذوا يتأهبون لكتابتها آخر الأمر في تلمود بابل وفلسطين . وهكذا اختبأت اليهودية في ظلمات الخوف والفرع ، بينما كانت وليدتها المسيحية تخرج لفتح العالم وسيادته .